الفصل الثاني

دروب فلسفية إلى الإسلام

لم يدر بخلدي على الإطلاق، وأنا أتوجه إلى وزارة الخارجية على جبل فينوس في بون يوم ٨/ ٩/ ١٩٨٠م، أنني سأسافر إلى مكة بعد سنتين لأداء فريضة الحج. فلقد بدأ ما حدث بعد ذلك، من تحول في حياتي يتكشف لي، عندما أمعنت التفكير في محاضرة شائقة ألقاها زميلي المسلم محمد أحمد هوبوم، وفي حديثي مع محمد أحمد رسول المدير المصري - الألماني لدار نشر «المكتبة الإسلامية» بكولون، وأنا أعرض عليه مخطوطاً من اثنتي عشرة صفحة، جمعتها لولدي على مر السنين، لكي أحدد له بشكل جازم ما أراه فلسفياً حقاً. فلقد أذهلني رد فعل رسول، وهو يقول لي: إن كنت مقتنعاً بما استخلصته، فأنت مسلم!! ولم يكن بوسعي آنذاك أن أدرك هذا. ومع ذلك، فقد أقنعني برغبته في نشر هذا النص، عن طريق دار نشره، تحت عنوان «درب فلسفي إلى الإسلام»[1].

لم يمر سوى أيام معدودات قبل أن أشهر إسلامي بنطق الشهادتين يوم ٢٥/ ٩/ ١٩٨٠م وليس من الأمور الهينة أن يقدم المرء كشف حساب وتقييماً لتطوره الفكري. لقد كتب هيرمان هسه فى إحدى رواياته القصيرة «نوفاله» Klein und Wagner عام ١٩١٩م: «التحدث هو أضمن السبل لإساءة فهم كل شيء وجعله ضحلاً ومجدباً». وكتب أيضاً في روايته « لعبة الكرات البلّورية» محذراً من صياغة معنى داخلي في كلمات، إذ يقول على لسان قائد الأوركسترا: «أظهر

(١) مراد هوفمان: «درب فلسفي إلى الإسلام». الطبعة الثانية، كولونيا، (١٩٨٣م).

المهابة للمعنى، ولكن لا تظنه قابلاً للتعلم». [١] لقد أخفق عظماء كثيرون في هذه المحاولة.

فعمر القوي، ثاني الخلفاء، كان يضطهد المسلمين إلى أن اعتنق الإسلام، ولا يمكن حقاً فهم كيفية إقناعه بالإسلام على نحو مفاجيء بعد أن قرأ سورة طه إثر مشاجرة مع أخته[٢].

ويقول الصوفي العظيم أبو حامد الغزالي (في القرنين الحادي عشر والثاني عشر م) في اعترافاته: «إن العقيدة لم تتغلغل في نفسه من خلال دليل واحد واضح بعينه، وإنما من خلال عدد لا يحصى من أسباب الإيمان، وخبرات ومواقف مصاحبة يمكن تعديد تفصيلاتها». ويقول أخيراً: إن عودته إلى الإسلام كانت بفعل «نور ألقاه الله في صدره»[٣].

وفي كتابه الرائع «الطريق إلى مكة»، يعرض محمد أسد لأمر هدايته إلى الإسلام في سطور قليلة لا تكاد تقنع بعض القراء المتشككين، في حين يشير في موضع آخر من كتابه إلى أنه تشرب الإسلام ارتشاحاً[٤].

ويكاد هذا الأمر يشبه أمر اهتداء كريستيان (عبد الهادي) هوفمان إلى الإسلام، إذ يصفه بما لو كانت «ضربة من السماء» قد أصابته[٥].

---

(١) هرمان هسه «طُرُق إلى الداخل»، فرانكفورت (١٩٧٣م). وكذلك: «لعبة البلورات الزجاجية» (١٩٤٣م)، طبعات عديدة في دار نشر **Suhrkamp**.

(٢) صحيح البخاري: «السنوات الأولى للإسلام» (ترجمة محمد أسد)، جبل طارق (١٩٨١م). في متن (١) الخاص بالمقطع ١١ (ص ١٦٧)، ترد روايتان مختلفتان لاعتناق عمر الدين الإسلامي.

(٣) الغزالي: «المنقذ من الضلال»، (دار نشر**Felix Meiner**، رقم ٣٨٩). هامبورج (١٩٨٨م)، ص١٠ وص٤٢.

(٤) محمد أسد: «الطريق إلى مكة»(١٩٥٤م)، جبل طارق (١٩٨٢م)ص ٣٥٠ وص ٣٦٠.

(٥) كريستيان هوفمان «بين كافة الكراسي»، بون (١٩٩٥م)، ص٢٥.

أما أنا فكنت لسنوات، بل لعقود، منجذباً إلى الإسلام كالمغناطيس، لأنني أَلِفْتُ أفكاره، كما لو كنت قد عايشته من قبل.

لقد وجهني إلى هذا الدرب ثلاثة أحاديث أساسية، ذات طبيعة إنسانية، وجمالية فنية، فلسفية. ويرتبط أول هذه الأحاديث ارتباطا عجيباً بالجزائر.

ففي عام ١٩٦٠م، أمضيت شهرين في Chateauneuf - sur - Loire لأتمكن من إجادة اللغة الفرنسية، استعدادا لامتحانات القبول بوزارة الخارجية. وهناك، كنت أقرأ يومياً تقارير الصحافة الفرنسية عن حرب الجزائر.

وفي اختبار القبول بوزارة الخارجية، كان على كل متقدم أن يلقي محاضرة مدة لا تتجاوز خمس دقائق في موضوع يحدد عشوائياً، ويكلف به قبلها بعشر دقائق. ولكم كانت دهشتي عندما تبين لي أن موضوع محاضرتي هو «المسألة الجزائرية». وكان مصدر دهشتي هو مدى علمي بهذا الموضوع، وليس جهلي به. وبعد شهور قليلة من الاختبار، ، وقبل أن أتوجه إلى جنيف بوقت قصير، أخبرني رئيس التدريب، عندما التقينا مصادفة في أثناء تناولنا للطعام، أن وجهتي قد تغيرت إلى الجزائر.

في أثناء عملي بالجزائر في عام ٦١/ ١٩٦٢م، عايشت فترة من حرب استمرت ثماني سنوات بين قوات الاحتلال الفرنسي وجبهة التحرير الوطني الجزائرية، وانضم إليهما في أثناء وجودي هناك طرف ثالث هو «منظمة الجيش السري»، وهي منظمة إرهابية فرنسية، تضم مستوطنين وجنوداً متمردين. ولم يكن يمر يوم دون أن يسقط عدد غير قليل من القتلى في شوارع الجزائر. وغالباً ما كانوا يقتلون رمياً بالرصاص على مؤخرة الرأس من مسافة قريبة. ولم يكن لذلك

من سبب، إلا كونهم عرباً، أو لأنهم مع استقلال الجزائر.

وكنت عند سماعي صوت سلاح آلي، أتصل هاتفياً بزوجتي الأمريكية لتسرع إلى شراء ما نحتاج إليه، لأن الهجوم التالي في المنطقة نفسها لا يتوقع حدوثه قبل عشرين دقيقة.

وكانت أنبل مهامي هي إعادة أفراد الفرقة الأجنبية من الألمان الفارين إلى الوطن بمعاونة من السلطات الفرنسية. وكان عدد هؤلاء الرومانسيين المساكين غير قليل، منذ فر قائد قوات المظلات في العام السابق. وكم كان الموت يجذبهم! وكانت منظمة الجيش السري قد جندت عدداً منهم ضمن قوات خاصة (كوماندوز). ومن ثَمَّ وجدوا أنفسهم بين نارين. كما كانت فرص نجاتهم من الموت ضئيلة جدّا. وكنت، بصفتي ممثلا للقنصلية العامة الألمانية، أضع الزهور على قبور الكثير منهم.

كنت، وأنا أبحث عن ألمان بين الجرحى في المستشفيات، أحمل سلاحي مُعداً للاستخدام. وكنت أدقق النظر في وجه من يقابلني، بل وفي يديه. وعندما كانت القامات تتقابل، كان كل شخص يبتعد عن الآخر عائداً إلى الخلف، طالباً للأمان. وفي بعض الأحيان، كانت زوجتي المذعورة تصر على حماية ظهري، فكانت تسير خلفي على مسافة عدة خطوات حاملة في كُمِّ ثوبها سكيناً حادة.

وما يزال بعض ذكريات تلك الأيام يثير كآبة في نفسي حتى الآن. فعندما كنت في طريقي إلى مقر إذاعة فرنسا ٥، حيث كان من المقرر أن ألقي، تنفيذاً لتكليف من القنصل العام، محاضرة عن « وضع الرقص المسرحي» في ألمانيا، تعطلت مضخة البنزين في سيارتي الفولكس واجن من طراز «الخنفسة» في شارع إيزلي

الضيق، كثير المنحنيات. وسرعان ما اصطفت السيارات خلف سيارتي، مطلقة أصوات النفير، وفي تلك الأثناء كان أمامي رجل يعبر الشارع، وأطلق عليه شخص الرصاص من الرصيف المقابل، فسقط جريحاً أمام سيارتي، وإذا بالمهاجم يشير لي بسلاحه آمراً أن أواصل سيري، كي أخلي ساحة إطلاق الرصاص. ولم أكن أرغب في ذلك، بل ولم أكن أستطيعه أيضاً. وأخيراً، تقدم الشخص الذي يحمل السلاح من الرجل المصاب، وأطلق عليه رصاصة أخرى أردته قتيلاً، ثم اختفى في زحام البشر في تؤدة وعلى مهل!

ولقد استأت كثيراً أيضاً، عندما رأيت مضطراً أعضاء منظمة الجيش السّري، وهم يشعلون النار في سيارات شحنوها سلفاً ببراميل من الوقود، ويدفعونها من فوق منحدر إلى حيّ يسكنه العرب. ولا بد للمرء من أن يتوقع أن يكون على قائمة القتلى، إذا ما أصبح شاهداً غير مرغوب فيه. وكان حلاقي في البيار يدرك ذلك جيداً، فحين هاجمت قوات «منظمة الجيش السري» مكتب التلغراف المقابل لمحله في شارع جاليني، أدار مقعده حتى لا يكون شاهداً على ما يجري. ولم يكن تصرفه أقل غرابة من تصرف أحد أفراد الشرطة الذي عرض عليّ في مايو عام ١٩٦٢م أن يحرس سيارتي، في حين كانت النيران مشتعلة خلف ظهره في مكتبة البيار.

عندما توصل الرئيس ديجول، في إيفيان في مارس عام ١٩٦٢م، إلى اتفاق مع الحكومة المؤقتة لجبهة التحرير الوطني الجزائري على وقف إطلاق النار في يوليو التالي[١]، صعّدت منظمة الجيش السري من أعمالها الإرهابية، بهدف استفزاز الجزائريين لخرق الاتفاق. فبدأ أفرادها في تصفية النشء الأكاديمي

(١) Les Accord d'Evian: Benyoucef Ben Khedda الطبعة الثانية، الجزائر (١٩٨٧م).

الجزائري، وراحوا يقتلون رمياً بالرصاص، النساء اللائي يرتدين الحجاب، وقبل تحقيق الاستقلال بأيام قليلة، أطلقوا الرصاص على آخر بائع جزائري جوال في البيار، فأردوه قتيلاً أمام مكتبي مباشرة. وكان هذا البائع قد عاش ينادي على أسماكه منذ عقود طويلة، دون أن يلحق أذى بأي إنسان كائناً من كان. وفي الشارع الذي كنت أقطنه، كان جيراني من الفرنسيين يلقون من النوافذ على المنتصرين بكل ما لا يبخلون به. وكانت الثلاجات التي يلقون بها تسقط على أكوام القمامة التي لم تُزَلْ منذ أسابيع، وهو ما كان من حسن حظ الفئران.

شكلت هذه الوقائع الحزينة خلفية أول احتكاك لي عن قرب بالإسلام المعيش. ولقد لاحظت مدى تحمل الجزائريين لآلامهم، والتزامهم الشديد في رمضان، ويقينهم بأنهم سينتصرون، وسلوكهم الإنساني، وسط ما يعانون من آلام. وكنت أدرك أن لدينهم دوراً في كل هذا. ولقد أدركت إنسانيتهم في أصدق صورها، حينما تعرضت زوجتي للإجهاض تحت تأثير «الأحداث» الجارية آنذاك.

فلقد بدأت تنزف عند منتصف الليل، ولم يكن باستطاعة سيارة الإسعاف أن تحضر إلينا قبل الساعة السادسة صباحاً، بسبب فرض حظر التجول، وبسبب شعار «القتل دون سابق إنذار» المرفوع آنذاك. وحينما حانت الساعة السادسة، أدركت، وأنا أطل من نافذة مسكني في الطابق الرابع، أن سيارة الإسعاف لا تستطيع العثور علينا، لأن منظمة الجيش السري كانت قد غيرت في تلك الليلة أسماء كل شوارع الحي الذي أقطنه، بحيث أصبحت كلها تحمل أسماء مثل شارع «سالان»، وشارع «يهود»، وشارع «منظمة الجيش السري».

بعد تأخير طال كثيراً، كنا في طريقنا متجهين إلى عيادة الدكتور شمعون (قبل أن تنسفها منظمة الجيش السري بوقت قصير)، حيث صادفنا حاجز أقامته الجمعية

الجمهورية للأمن. وعلى الرغم من صفير البوق الذي كان السائق يطلقه، فإنه لم يكن باستطاعته أن يشق طريقه إلا ببطء شديد. وكانت زوجتي تعتقد، في تلك الأثناء، أنها ستفقد وعيها. ولذلك، وتحسباً للطوارئ، راحت تخبرني أن فصيلة دمها هي (O) ذات (RH) سالب. وكان السائق الجزائري يسمع حديثها ، فعرض أن يتبرع لها ببعض من دمه الذي هو من فصيلة دمها نفسه. ها هو ذا العربي المسلم يتبرع بدمه، في أتون الحرب، لينقذ أجنبية على غير دينه.

لكي أعرف كيف يفكر ويتصرف هؤلاء السكان الأصليون المثيرون للدهشة، بدأت أقرأ «كتابهم» . . القرآن في ترجمته الفرنسية لـ Pesle/Tidjani. ولم أتوقف عن قراءته منذ ذلك الحين، حتى الآن. وحتى تلك اللحظة، لم أكن قد تعرفت على القرآن إلا من خلال النوافذ المفتوحة لكتاتيب تحفيظ القرآن في متزاب جنوبي الجزائر، حيث يحفظه أطفال البربر، ويتلونه في لغة غريبة عنهم، وهو ما دهشت له كثيراً. وفيما بعد أدركت أن حفظ وتلاوة القرآن، باعتباره رسالة الله المباشرة، فرض تحت الظروف كافة.

ولقد أزعجني رد الفعل الغاضب من جانب أحد الجزائريين، عندما حدثته في بهو فندق ترانس ميدترانيان في غارداية، عن قراءتي للقرآن، إذ استنكر في صراحة لا ينقصها الوضوح وجود ترجمات له. وعدَّ محاولة ترجمة كلام الله إلى لغة أخرى بمنزلة تحريف. ولم أستغرق وقتاً طويلاً قبل أن أستوعب رد فعله، فاللغة العربية تشتمل على مفردات لا تدل على وقت محدد بعينه، فالمفردات التي تشير إلى مستقبل مؤكد يمكن أن تدل على أمر حدث في الماضي أيضاً. ناهيك عن أن اللغة العربية تتضمن بعض ما يمكن للعربي أن يفهمه تلميحاً. وبغض النظر عن ذلك، فهناك المشكلة المعتادة التي تكمن في أن الكلمات التي تعبر عن المعنى

ذاته في لغتين لا تتطابق فيما يختص بتداعي الخواطر إلا نادراً، ومن ثم، فإن كل ترجمة للقرآن إن هي إلا تفسير يُفقر المعنى ويجرده من مضمونه، وهكذا كان الرجل في البهو على حق.

لم تشأ هذه الجزائر، التي أدين لها بالكثير، أن تتركني وشأني، وإنما تبعتني كالقدر. فعندما أصبحت سويسرا ترعى مصالحنا في الجزائر، في عام ١٩٦٦م، كان عليّ أن أعمل من السفارة الألمانية في بون على استمرار الاتصال مع من تبقى من بعثتنا الدبلوماسية في الجزائر، من خلال القسم السياسي في السفارة السويسرية. وكان البريد المرسل من بون إلى الجزائر، يمر من خلالي أسبوعياً. وبعد ٢٥ عاماً من عملي في الجزائر لأول مرة، عدت إليها سفيراً في عام ١٩٨٧م. ومنذ اعتمدت سفيراً في المغرب المجاور للجزائر، في عام ١٩٩٠م، يندر أن تفارق مخيلتي صورة الجزائر التي ما تزال تعاني آلاماً مأساوية. فهل يمكن أن يكون ذلك كله محض مصادفة؟!

* * *

هداني إلى الإسلام أيضاً، تجربة مهمة، ذات طبيعة جمالية متصلة بالفن الإسلامي. ولهذه التجربة، قصة تتلخص في أنني «مولع بالجمال». وكنت منذ صباي معجباً بالجانب الشكلي للجمال، وأرغب الغوص في أعماقه حتى عندما كانت حماتي الأمريكية تقول - استناداً إلى المنهج البيوريتاني - إن الجمال مجرد أمر سطحي، وإنه ليس إلا خداعاً على السطح.

عندما تلقيت في عام ١٩٥١م الدفعة الأولى من منحة التفوق، التي تمنحها وزارة الثقافة في بافاريا «للموهوبين جداً»، دفعتها بأكملها ثمناً لشراء نسخة مطبوعة على قطعة من الجوت من لوحة بول جوجان «الفتاة وثمار المانجو». وبما

أنني لم أكن ممن يقطنون حي Maximilianeum، الواقع على اليمين من نهر إيزار، Isar وإنما كنت أقيم في المستوطنات السكنية للثوريين الديمقراطيين، عند ميدان ماسمان، حيث يتقاسم العمال والطلبة غرفها، فقد نقلت لوحة جوجان التي اشتريتها إلى مسكني هناك، ورحت أحللها، ولم ألبث أن اقتنعت بأن الفن الساكن (غير المتحرك) - الرسم، والنحت، والعمارة، والخط، والأعمال الفنية الصغيرة - مدين بالفضل في تأثيره الجمالي للحركة المجمدة؛ ومن ثم، فإنه مشتق من الرقص. ولذلك، يزداد إحساسنا بجمال الفن التشكيلي كلما ازدادت قدرته على الإيحاء بالحركة.

وهذا هو ما يفسر انبهاري الشديد بالرقص الذي دفعني إلى مشاهدة عروض الباليه كافة في مسرح برينزرجنتن في ميونخ. ومنذ ذلك الحين، ازداد اهتمامي بالرقص، واتسع ليشمل كل ما يتصل به. وكنت أقضي كل ساعة فراغ بين مواعيد المحكمة في صالات عروض الباليه، بالقرب من قصر العدل. وحصلت على تمارين للباليه، لكي أتعلم ولو على نحو مختلف - رقص الباليه الكلاسيكي، حتى أعرف ماهية ما أكتب عنه. ويعتمد هذا الفن اللطيف، في نهاية الأمر، على جهد بدني خارق. وهكذا تعلمت أن أميز، على سبيل المثال، بين الحركات المختلفة وأساليب أدائها[1].

كان أكثر ما يروق لي هو مدرسة لونافون زاخنوفسكي الروسية، التي تعيش

(١) من يهتم بخطوات ومصطلحات الباليه الكلاسيكي، سيجد خير دليل في كتاب «أسس الرقص الكلاسيكي» لمؤلفه A.J.Waganowa, (ترجمة: Jochen Scheibe)، والصادر في برلين عام ١٩٦٤م.
وكذلك كتاب: «الباليه الكلاسيكي» تأليف: Muriel Stuart/George Balanchine، نيويورك (١٩٥٢م).

في المنفى. ولقد تربى في هذه المدرسة تلميذات نجيبات مثل أنجيلا ألبريشت. ومنها تكونت في منتصف الخمسينيات فرقة «باليه زاخنوفسكي»، التي قدمنا بوساطتها عروضاً راقية في ميونخ وفي مدن أخرى في بافاريا. وكنت مسؤولاً في هذه الفرقة عن التعاقدات، والدعاية والإضاءة، ووحدة التزيين، وفي عام ١٩٥٥م، أسست في ميونخ بالاشتراك، مع كارل فيكتور برينتس تسوفيد، جماعة أصدقاء الباليه، وتوليت معه باب نقد الرقص في صحيفة ميونخ المسائية.

كانت المراحل التالية في حياتي هي بإيجاز: العمل فيما بين عامي ١٩٥٤م، ١٩٨٠ ناقداً متخصصاً في الباليه في صحف في ألمانيا وبريطانيا وأمريكا، والعمل محاضراً لمادتي تاريخ وعلم جمال الباليه بمعهد كولونيا للباليه فيما بين عامي ١٩٧١م، ١٩٧٣م. وتقدمت بمذكرات إلى مؤتمر وزير الثقافة حول تأسيس باليه قومي ألماني.

لم يكن بعض معارفي يعلم أن القانون والدبلوماسية هما مهنتاي الأساسية، وليس الباليه. وكان الكتاب الأثير حقاً عندي، هو كتاب جيلبرت وكونز عن تاريخ علم الجمال بوصفه علماً فلسفياً[١]. وكعاشق للباليه، ذلك الفن المجرد الذي يجسد الموسيقى، كنت في الواقع أبحث عن الأسباب التي ترغمنا على الإحساس بجمال أشياء أو حركات بعينها[٢] ولهذا السبب، كنت أقبع لأسابيع طويلة في إحدى الغابات البفارية باحثاً في أسس علم جمال الحركة. وهناك تبين لي أننا بوصفنا بشراً لانملك إلا أن نحس جمال الجسد البشري الصحيح وما

(١) كاترين جيلبرت وهلموت كونز «تاريخ علم الجمال»، بلومنجتن، إنديانا، عام ١٩٥٣م.

(٢) فلفريد هوفمان: «الباليه. الموضوعي وغير الموضوعي»، في «المسرح والعصر»، فوبرتال (١٩٦٥م)، عدد ٦.

يتطابق مع مقاييسه. وهو ما ينطبق أيضاً علينا بوصفنا محللين بصريين لما تفرزه الطبيعة من صور وأنواع. يضاف إلى ذلك أننا نقرأ الصور في ذات الاتجاه الذي نكتب فيه. وتبين لي أخيراً أن الحركات تستحوذ على انتباهنا بسبب ما يمكن أن تنطوي عليه من مخاطر. وتبين لي آخراً أننا نُعْجَبُ بحركات الطرد المركزي، لأننا نستطيع أن نتخيلها ممتدة في ما لا نهاية[1].

عبر هذا الطريق، صار الفن الإسلامي بالنسبة لي تجربة مهمة ذات قيمة عالية ومثيرة. ألا يماثل في سكونه تماماً ما أسعدني في حركات الباليه.. التجريدية: القدرة الإنسانية، والحركة الداخلية، والامتداد فيما لا نهاية، وذلك كله في إطار من الروحانية التي يتسم بها الإسلام؟!

ألهمتني أعمال معمارية، مثل الحمراء في غرناطة، والمسجد الكبير في قرطبة، اليقين بأنها إفراز حضارة راقية رفيعة. واستوعبت جيداً ما كتبه راينر ماريا ريلكا بعد زيارته لكاتدرائية قرطبة، إذ كتب: «... تملكني منذ زيارة قرطبة عداء وحشي للمسيحية. إنني أقرأ القرآن وهو يتجسد لي صوتاً يستوعبني بقوة طاغية، وأندفع بداخله كما تندفع الريح في الأرغن»[2].

صار الفن الإسلامي لي وطناً جمالياً، مثلما كان الباليه الكلاسيكي من قبل. وأصبحت أرى الأعمال الفنية للعصر الإغريقي والروماني والقوطي، ولعصر

(١) فلفريد هوفمان «عن الجمال في الرقص - أسس جماليات الباليه»، في «أرشيف الرقص» كولونيا (١٩٧٣م - ١٩٧٤م) العدد ٦ - ٨. ونشرت كذلك مصورة تحت عنوان «عن الجمال والرقص. نحو أسس جماليات الباليه» باللغة الإنجليزية في «آراء حول الرقص»، نيويورك (١٩٧٣م) العدد ٥٥.

(٢) نقلاً عن «إيفا بركون»: نظريات عن التأثير العربي في الموسيقى الأوروبية في العصور الوسطى» صدر في الدورف عام ١٩٧٦م، ص ١١٠.

النهضة والروكوكو مثيرة، وعريقة، وأصيلة، بل وعبقرية، ولكنها لا تنفذ إلى داخلي، ولا تحرك عواطفي ولا مشاعري.

إنني أدرك قوة جاذبية فن هذا الدين الآن أفضل من ذي قبل؛ حيث إنني محاط في المنزل الآن بفن تجريدي، ومن ثم بفن إسلامي فقط. وأدركها أيضاً عندما يستمر تاريخ الفن الغربي عاجزاً عن مجرد تعريف الفن الإسلامي. ويبدو أن سره يكمن في حضور الإسلام في حميمية شديدة في كل مظاهر هذا الفن، كما في الخط، والأشغال الحشبية المزخرفة، ونقوش السجاد، وعمارة المساجد والمنازل والمدن. إنني أفكر كثيراً في أسرار إضاءة المساجد وفي بنائها الديمقراطي، وفي بناء القصور الإسلامية، الذي يوحي بحركة متجهة إلى الداخل، بحدائقها الموحية بالجنة بظلالها الوارفة وينابيعها ومجاريها المائية، وفي الهيكل الاجتماعي - الوظيفي المبهر للمدن الإسلامية القديمة (المدينة) الذي يهتم بالمعيشة المتجاورة تماماً كما يهتم بإبراز موقع السوق وبالمواءمة أو التكيف لدرجات الحرارة وللرياح، وبدمج المسجد والتكية والمدرسة والسبيل في منطقة السوق ومنطقة السكن.

إن من يعرف واحداً من هذه الأسواق - وليكن في دمشق، أو إسطنبول، أو القاهرة، أو تونس، أو فاس - يعرف الجميع. فهي جميعاً، كبرت أم صغرت، منظمات إسلامية من الطراز الوظيفي ذاته. فما أكثر ما تجولت في سوق مدينة سالي المؤاخية للرباط لكي أستعيد حيويتي. إنه ذروة مجتمعية حيوية يجد فيها كل إنسان مكاناً له، شيخاً كان أو شاباً، صحيحاً كان أو معاقاً، فقيراً أو غنياً، أبيض أو أسود. ولا يوجد به عجلة، ولا أزمة ضيق وقت، ولا مبالغة في تقييم الذات، ولا خمور، ولا وسائل نقل ثقيل، ولا سياج، ولا ابتزاز، وحيث الجميع سواسية، وكل عملية شراء ترتبط بـ «دردشة»، وحيث تغلق الحوانيت أبوابها وقت الصلاة.

كان ما أحسست منذ البداية أنه إسلامي وباعث على السعادة هو في واقع الأمر التأثير الناضج للتناغم الإسلامي، وللإحساس بالحياة والمكان الإسلاميين على العقل والروح. وهذا ما أحسست به في متحف جولبينكيان الإسلامي في لشبونة، مثلما أحسست به في المسجد الأموي بدمشق، وفي مسجد ابن طولون بالقاهرة، وفي مسجد القيروان القديم أو المسجد السليمي في درنه.

قبل أن يقودني الدرب الفلسفي إلى الإسلام، الذي قادني بدوره إلى تجربة أساسية ثالثة في حياتي، كنت قد حصلت، وأنا بعد في سن المراهقة في مدينة أشفنبرج، على قسط وافر من التعليم الجيزويتي، من خلال عضويتي لجمعية Con-gregatio Mariana، وهي المقابل لحركة «أمانيا الجديدة» المتمركزة في الشمال.

ويعود ارتباطنا، بل تعلقنا الرومانسي، بهذه المنطقة إلى مدة حكم النازي، وذلك لأن الجستابو لم يتمكن من الكشف عنها عندما كانت تقاوم هذا الحكم سراً. ولم يكن حتى أبي المشتت الفكر يعلم بعضويتي لهذه المنظمة. وكنا نجتمع أسبوعياً مع أحد القساوسة الجيزويت في إحدى المقابر، في ظل إجراءات أمنية مشددة. فكان كل فرد منا لا يعرف سوى أفراد مجموعته فحسب. ولكننا تمكنا بمرور الوقت من استقطاب أفضل عناصر تلاميذ المدارس الثانوية. وقطعنا بذلك الطريق على منظمة «شبيبة هتلر»، أي إننا منعنا هذه العناصر الجيدة من أن تنضم إلى منظمات الشباب التابعة للحكم النازي. ولقد أدهشنا أن عدد أفراد المنظمة بلغ عند انتهاء الحرب ٨٠ فرداً.

بعد أن انقضت الحرب، عدنا إلى الاستمتاع بحياة وأساليب منظمات الشباب التي كانت سائدة في عشرينيات هذا القرن.

ونظراً لما سبق ذكره، فقد كنت على دراية تامة بالديانة الكاثوليكية، وبأدق شؤونها من الداخل. ولكنني في الوقت ذاته، كنت قد بدأت أضع هذه الديانة محل تساؤلات وشكوك.

كنت أنا و Carl Jacob Burckhardt نتساءل دوماً عما إذا كان من الصواب أن يكون عالم اللاهوت ودارس الأديان مسيحي الديانة[١].

وبالرغم من إعجابي بفلسفة Ludwig Wittgenstein، فإني كنت على يقين تام من عدم وجود دليل ينفي وجود الله. وكنت شديد التمسك بالرأي القائل بأن عدم وجود الله غير مؤكد بشكل قاطع، وأن الاعتقاد بوجود الله أو نفي وجوده يظل مسألة تحسمها العقيدة ويقين الفرد[٢].

ولقد حسمت هذه باعتقادي في وجود الله. وبعد ذلك ثار سؤال عن ماهية الاتصال بين الله والإنسان.

ولقد كنت شديد الاقتناع بإمكانية، بل قل بضرورة، تدخل الله وتسييره لمجريات الأمور. ويرتكز اقتناعي هذا على دراستي ودرايتي بتاريخ الإنسانية والعلوم والحق، التي استنتجت من خلالها أن مجرد مراقبة الطبيعة وتتبعها فقط لن يقودنا إلى إدراك حقيقة علاقتنا ببيئتنا وبالله. ألا يشهد تاريخ العلوم على حقيقة مفادها: أن الحقائق العلمية يغير بعضها بعضاً بسرعة شديدة[٣]؟!

كنت بهذه الخطوة قد حسمت يقيني بإمكانية، بل بضرورة، الوحي والدين.

(١) هو جوفون هوفمانستال/ كارل بوركهاردت: (رسائل) فرانكفورت (١٩٥٧م)، خطاب بتاريخ ١٥/ ١/ ١٩٢٩م.

(٢) انظر (١)، خطاب بتاريخ ١٢/ ١/ ١٩٢٩م.

(٣) ريتشارد سوبرن: «وجود الله» شتو تجارت (١٩٨٧م).

ولكن أي دين؟ وأي عقيدة؟ هل هي اليهودية، أو المسيحية، أو الإسلام[1]؟

وجاءتني الإجابة من خلال تجربتي الثالثة التي تتلخص في قراءتي المتكررة للآية ٣٨ من سورة النجم: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2] ولا بد من أن تصيب هذه الآية بصدمة شديدة كل من يأخذ مبدأ حب الآخر الوارد في المسيحية مأخذ الجد، لأنه يدعو في ظاهر الأمر إلى النقيض.

ولكن هذه الآية لا تعبر عن مبدأ أخلاقي، وإنما تتضمن مقولتين دينيتين تمثلان أساساً وجوهراً لفكر ديني، هما:

١- أنها تنفي وتنكر وراثة الخطيئة.

٢- أنها تستبعد، بل وتلغي تماماً، إمكانية تدخل فرد بين الإنسان وربه، وتحمل الوزر عنه.

والمقولة الثانية هذه تهدد، بل وتنسف، مكانة القساوسة، وتحرمهم من نفوذهم وسلطانهم الذي يرتكز على وساطاتهم بين الإنسان وربه وتطهيرهم الناس من ذنوبهم.

والمسلم بذلك هو المؤمن المتحرر من جميع قيود وأشكال السلطة الدينية.

أما نفي وراثة الخطيئة وذنوب البشر، فقد شكل لي أهمية قصوى، لأنه يفرغ التعاليم المسيحية من عدة عناصر جوهرية، مثل: ضرورة الخلاص، والتجسيد، والثالوث والموت على سبيل التضحية.

(١) انظر وصف اعتناقي الإسلام في كتاب «الحمد لله، مسلم ذو أصول غربية» في: «ألمان هداهم الله»، كولونيا (١٩٨٢م).

(٢) تجد المعنى ذاته في الآيات التالية: سورة ٦ الآية ١٦٤، سورة ١٧ الآية ١٥، سورة ٣٥ الآية ١٨، وسورة ٣٩ الآية ٧.

وبدا لي أن تصور فشل الله في خلقه، وعدم قدرته على تغيير ذلك إلا بإنجاب ابن والتضحية به – أي إن الله يتعذب من أجل الإنسانية – أمر فظيع ومروع، بل وتحريف وإهانة بالغة.

وبدت لي المسيحية وكأنها تعود لترتكز في أصولها على أساطير متنوعة ومتعددة.

وتبين لي جليًّا الدور الخطير والشرير الذي أداه بولس الرسول. لقد قام بولس – الذي لم يعرف المسيح أبداً ولم يصاحبه في حياته – بتغيير بل بتزوير التعاليم اليهودية – المسيحية التي صاغها برنابه وترى في المسيح أحد رسل الله وأنبيائه.

وتيقنت أن المجلس الملي، الذي انعقد في نيقيا (عام ٣٢٥)، قد ضل طريقه تماماً، وحاد عن الصواب وتعليمات المسيحية الأصلية، عندما أعلن أن المسيح هو الله. واليوم، أي بعد مرور ما يزيد على ستة عشر قرناً، يحاول تصحيح هذا الخطأ بعض علماء اللاهوت الذين يتمتعون بجرأة شديدة.

ومجمل القول: إنني بدأت أنظر إلى الإسلام كما هو، بوصفه العقيدة الأساسية الحقة التي لم تتعرض لأي تشويه أو تزوير.. عقيدة مؤمن بالله الواحد الأحد الذي ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ (سورة: الإخلاص). رأيت فيه عقيدة التوحيد الأولى، التي لم تتعرض لما في اليهودية والمسيحية من انحراف، بل ومن اختلاف عن هذه العقيدة الأولى.. عقيدة لا ترى أن معتنقيها هم شعب الله المختار، كما أنها لا تؤله أحد أنبياء اليهود.

لقد وجدت في الإسلام أصفى وأبسط تصور لله، تصور تقدمي. ولقد بدت

لي مقولات القرآن الجوهرية ومبادئه ودعوته الأخلاقية منطقية جداً حتى إنه لم تعد تساورني أدنى شكوك في نبوة محمد.

ولقد سمعت مراراً قبل اعتناقي الإسلام مقولة أن التحول من دين إلى دين آخر ليس له أي أهمية، حيث إن الأديان كلها تؤمن في آخر الأمر بإله واحد، وتدعو إلى الأخلاقيات والقيم ذاتها. وإن السلوك والأخلاق الحميدة، وبالإضافة إلى الإيمان بالله في قلب الإنسان، وأن يتوجه الإنسان إلى الله سراً، لأهم من الصلاة خمساً، ومن صوم رمضان وأداء فريضة الحج. كم من مرة اضطررت إلى الاستماع إلى هذه المقولات من مسلمين أتراك تخلوا عن عقيدتهم دون أن يدركوا ذلك[1].

إن إلهًا خاصًا سريًا ليس بإله.. وكل هذه الحجج والمقولات تبدو واهية، إذا ما تيقنت أن الله يتحدث إلينا في قرآنه. ومن يدرك هذه الحقيقة لا يجد مفراً من أن يكون مسلمًا بأعمق معاني هذه الكلمة.

(١) محمد رسول: «الصلاة في الإسلام»، كولونيا (١٩٨٣م).

openkanal.com